الهوية الوطنية ضمن كتابات أحمد توفيق المدني
كتاب "الجزائر" أنموذجا

The National Identity In The Writings Of Ahmed Taoufik El Madani.
The Book Of "Algeria" As A Model

د. موسم عبد الحفيظ،
جامعة الدكتور مولاي الطاهر- سعيدة ،
Abdelhafid.moussem@univ-saida.dz

تاريخ الاستلام: 2020/10/25 تاريخ القبول: 2021/08/06

ملخص:
تتناول الدراسة إشكالية مهمة تتعلق بالبحث في أبعاد الهوية الوطنية عند أحمد توفيق المدني من خلال كتابه "الجزائر"، الذي يعتبر مصدرا مهما لدراسة الحياة العامة في الجزائر، باعتبار أن مؤلفه قد عرض فيه تاريخ الجزائر وواقعها من وجهة نظر جزائرية عربية وإسلامية، مُدافعا بذلك عن الدين الإسلامي واللغة العربية وغيرها من القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية . أما عن الأهداف الأساسية لهذه الدراسة فإنها تتعلق أساسا بالوقوف على معالم الهوية الوطنية الأصيلة للأمة الجزائرية من خلال كتاب الجزائر، الذي استطاع من خلاله المدني أن يتصدى لكتابة تاريخ وطني أصيل، يعكس عراقة الجزائريين وامتدادهم الحضاري عبر التاريخ، وهذا باعتبار أنه قد رسم من خلال كتابه صورة الجزائر طبقا لأصلها، كما حرص على توجيه رسائل تشُع بالهوية الوطنية للمتلقي.

الكلمات المفتاحية: أحمد توفيق المدني، الهوية الوطنية، كتاب الجزائر، الجزائر، الاستعمار الفرنسي.

Summary:
This study explores a significant problematic issue related to national identity's dimensions of Algeria. Accordingly, Ahmed Taoufik El Madani's book of "Algeria" is considered a key source for studying public life in Algeria. In his book, the Algerian history, and reality from an Algerian, ,Arab, and Islamic perspective was presented, and

where Islamic religion, Arabic social, ethical, and cultural values were advocated. The primary aim of the current study is to identify aspects of the authentic national identity of the Algerian nation through the Book of Algeria. In this book, El Madani was able to write for an authentic national history, reflecting the ancient Algerians and their civilization historically. Besides, this book drew the mirror image of Algeria, and sent messages that affirm the national identity for readers.

Keywords: Taoufik El Madani, National Identity, The Book Of Algeria, French Colonisation.

المؤلف المرسل: د. موسم عبد الحفيظ. abdelhafid.moussem@univ-saida.dz

أولا. مقدمة:

ظهرت خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، مجموعة من الشخصيات الجزائرية البارزة التي استطاعت بفضل تأثرها وتشبعها بالفكر القومي والوطني الذي كان سائدا حينذاك في أوروبا، أن تتفطن إلى أهمية الحديث عن ماضي الأمة وإعادة الاعتبار للتاريخ الوطني الذي تعرض للتشويه من قبل الاستعمار الفرنسي، وقد انبرى لهذه الغاية النبيلة ثلة من الرواد الجزائريين، كان في طليعتهم أحمد توفيق المدني الذي استطاع من خلال إسهاماته التاريخية، أن يتصدى لكتابة تاريخ وطني أصيل يعكس عراقة الجزائريين وامتدادهم الحضاري عبر التاريخ. فهو من أوائل المؤرخين الجزائريين الذين اهتموا بالبحث في تاريخ الجزائر خلال العشرينيات من القرن الماضي. وسوف نسلط الضوء في هذه الدراسة على أبعاد الهوية الوطنية ضمن كتابات أحمد توفيق المدني من خلال كتابه "الجزائر"، مُحاولين بذلك الإجابة على التساؤلات التالية: من هو أحمد توفيق المدني؟، فيما تمثلت دواعي الكتابة التاريخية عند أحمد توفيق المدني انطلاقا من كتابه "الجزائر"؟، وما هي معالم الهوية الوطنية من خلال كتابه "الجزائر"؟.

ثانيا. التعريف بشخصية أحمد توفيق المدني:

هو أحمد توفيق بن محمد بن أحمد بن محمد المدني القبطي الغرناطي، ولد بتونس سنة 1899، وهو من أصول جزائرية، تخرّج من جامع الزيتونة لكنّه لم يحز على الشهادة لأنه كان بدون دفتر، ذو ثقافة واسعة، عُرف منذ بداية حياته بنضاله الوطني ونشاطه السيّاسي[1]، حيث انخرط مبكرا في الحياة السياسية التونسية إلى جانب معارضين من خريجي الزيتونة، وتعرض بذلك للاعتقال والسجن بين سنوات 1915 – 1918. وفي عام 1920 أنشأ مع أصدقاء له الحزب الدستوري الحر فأصبح من إطاراته الرئيسية[2].

ونتيجة لنضاله المستمر ضد الاستعمار الفرنسي، أبعدته فرنسا عن تونس إلى بلده الأصلي (الجزائر) عام 1925، أين وجد المدني مجاله الخصب لمواصلة نشاطاته الصحفية والدعائية المنددة بسياسة فرنسا في ربوع الشمال الإفريقي، خاصة وأن الجزائر (موطن آبائه وأجداده) كانت حينذاك تتطلع إلى رجال من أمثاله، فاحتضنته احتضان الأم الحنون، وشارك في مختلف ميادين نضالها وساحات جهادها[3].

وعلى إثر هذا الإبعاد كشف أحمد توفيق المدني عن أحاسيسه القومية حين قال: «كنت أعمل في تونس بروح جزائرية فإذا بي أعمل في الجزائر بروح تونسية...، واكتشفت أن العمل واحد وأن الكفاح واحد، وأن جهادنا مشترك ضد العدو الفرنسي...، إن جهادنا بمثابة وعاء متصل الأجزاء، ما صببت في جزء من أجزائه شيئا إلا توزع بصفة متعادلة وعلى سائر الأجزاء»[4]. وعلى الساحة الجزائرية كانت لأحمد توفيق المدني إسهامات كبيرة في خدمة القضية الوطنية الجزائرية، حيث كان من مؤسسي جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، كما كان حضوره لافتا في ميدان صحافتها[5].

لقد نشط أحمد توفيق المدني بالجزائر لسنوات عديدة إلى جانب رموز الحركة الإصلاحية، وكان مقربا من العلامة ابن باديس الذي كان معجبا

بحماسه في العمل، إذ تولى منصب الأمين العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1951[6]. وبعد اندلاع الثورة الجزائرية انضم إلى جبهة التحرير الوطني وأصبح الناطق الرسمي له، ثم التحق بوفدها الخارجي عام 1956 وأصبح ناطقا باسمه في القاهرة، وقام بجولات عديدة في بلدان المشرق والمغرب من أجل الدعاية للثورة، واختير عضوا في مجلسها الوطني المنبثق بعد مؤتمر الصومام، كما تقلد منصب وزير الثقافة في أول حكومة مؤقتة للجزائر بين سنتي 1958 – 1960[7]. وبعد الاستقلال تقلّد عدّة مناصب دبلوماسية، وظلّ كذلك إلى أن وافته المنيّة يوم 18 أكتوبر 1983 بمدينة الجزائر، تاركا مؤلّفات كثيرة ومتنوعة أهمّها: تقويم المنصور، الحريّة ثمرة الجهاد، كتاب الجزائر. التّاريخ والجغرافيا والمجتمع...الخ[8].

ثالثا. الظروف العامة لتأليف وإصدار كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني:

إن الحديث عن كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني، يتطلب منا الإشارة إلى الظروف العامة لكتابته وإصداره، فكما هو معلوم أن سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر قد أقامت خلال الستة أشهر الأولى من سنة 1930، احتفالات ومهرجانات كبرى احتفاء بمئوية الاحتلال، عرضت خلالها أفلام سنيمائية واستعراضات عسكرية، ناهيك عن التصريحات والخطب المهينة للجزائريين في عقيدتهم والمهددة لشخصيتهم القومية[9]. وهو ما أثار غضب الشيخ أحمد توفيق المدني الذي كتب معبرا عن استيائه الكبير والشديد من جراء هذه الاحتفالات قائلا: "كنت أضطرم نارا، كنت ألهب حماس القوم الذين كانوا يكتفون بمقابلة تلك الأحداث المؤلمة بموجة الدموع السخية"[10].

وفي مثل هذه الظروف أخذ أحمد توفيق المدني على عاتقه مهمة التحرك العلمي لمواجهة هذه الاحتفالات وتأثيراتها، منذرا الجزائريين بالخطر المحدق

بهم، داعيا إياهم لرص الصفوف والاتحاد لمجابهة العدو، كاشفا في الوقت ذاته زيف وادعاءات فرنسا بنشر التمدن والحضارة في أوساط الجزائريين[11]، إذ خاطبهم في هذا الشأن قائلا: "وعلى من تريدون أن تعتمدوا لحفظ دينكم ولغتكم؟، أتعتمدون على الحكومة؟، إن الحكومة قد عاشت اليوم معكم مائة عام كاملة، فماذا كانت نتيجة جهودها لتعليمكم الإسلام والعربية"[12].

ولم يكتف أحمد توفيق المدني بكتابة مثل هذه المقالات التي جاءت على شكل خطابات وفقط، بل اتجه إلى عمل أكثر جدية لتأكيد هوية الشعب الجزائري من أقدم العصور إلى عام 1930، حين ألف كتابه الشهير والمعروف بكتاب "الجزائر" عام 1931، الذي جاء كرد فعل صريح على الاحتفالات المئوية الفرنسية الجارحة[13]، متحديا بذلك سياسة فرنسا الاستعمارية ومعارضا لطرحها المزيف والمشوه لتاريخ الجزائر، خصوصا ونحن نعلم أن فرنسا قد روجت أثناء هذه الاحتفالات لأفكار تدعي من خلالها أن الجزائر لم يكن لها وُجودا قبل مجيء الفرنسيين، وأن الشعب الجزائري لا مقومات له[14].

وعن ظروف إصدار الكتاب يقول أحمد توفيق المدني: "... وبعد أربع سنوات من جمع المادة العلمية، اعتكفت في مكتبي سنة كاملة ومن حولي الأوراق والإحصائيات والأضابير وكتب التاريخ، وأخذت أمحص ذلك وأنزع عنه ثياب الاستعمار المدلسة، وأزيح أكاذيبه الفاضحة وأكتب الحقيقة الناصعة كما يجب أن تكتب، حتى خلصت بعد جهد كبير في ترتيب الأحداث ومقارنتها ثم تحليلها وإصدار الأحكام بشأنها إلى كتاب الجزائر..."[15].

وللإشارة فقد لقي صدور الكتاب استحسانا كبيرا من طرف كبار المفكرين والمؤرخين على المستوى الداخلي والخارجي[16]. ولعله من المستحسن هنا الإشارة إلى بعض العلماء الذين نوهوا بهذا الإنجاز وكتبوا عنه، وفي مقدمتهم الأمير شكيب أرسلان الذي قال عنه: «ظهر كتاب "الجزائر" بقلم الوطني الفاضل أحمد توفيق المدني، وجمع الكتاب كل ما يلزم معرفته من شؤون

الجزائر، بحيث لا يصح أن يخلو منه أحد ممن يريدون حق الإطلاع على أحوال المغرب الأوسط»[17]. كما عني بالكتابة عنه والإشادة به جمهرة من الباحثين أمثال شارل أندري جوليان وجاك بيرك وشارل روبير آجرون وماسينيون[18]. هذا بالإضافة إلى الدكتور عبد المالك مرتاض الذي اعترف بالدور الهام لكتاب الجزائر باعتبار الظروف التي صدر خلالها، إذ يقول عن المدني في هذا الشأن: "... ومن خلال كتابه الجزائر، يجب أن يعده التاريخ أحد المؤرخين الجزائريين الذين قامت على أكتافهم النهضة التاريخية في وطننا خلال فترة عصيبة ... إن فضل المدني على التاريخ الوطني إذن عظيم..."[19].

كما تجب الإشارة في هذا السياق ومن باب الموضوعية التي يقتضيها البحث التاريخي الجاد، إلى بعض الكتابات التاريخية التي انتقدت أحمد توفيق المدني من خلال مؤلفه "كتاب الجزائر"، وفي مقدمتها كتابات الشيخ محمد الطاهر فضلاء، الذي انتقد المدني على تمسكه بمبدأ "الأنا" في كتابه قائلا: "... ظهر في مؤلفه عن الجزائر وكأنه هو صاحب الأفكار السيدة أو هو صانعها، مما جعل بعض كلامه محل قوسين من طرف القارئ."[20] وانتقده أيضا في اعتماده على الاستشهاد بأقوال وسياسة الحكام الفرنسيين دون إسنادها لمصدرها الأصلي (عدم ذكر الأسماء)، ودون وضع الاقتباس بين تنصيصين كما هو معمول به في المنهج العلمي[21]. هذا بالإضافة إلى الانتقادات الأخرى المتعلقة بالأمانة العلمية في تقديم واستسقاء معلومات الكاتب من حيث افتقار الكتاب للإحالات وانعدام الهوامش وعدم وجود البيبليوغرافيا...، وكذا اعتماده على اللهجة العامية في كثير من الأحيان، ولعل هذا ما يتنافى مع قواعد وأسس الكتابة التاريخية الحديثة[22].

ولم تقتصر انتقادات كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني على الشيخ محمد الطاهر فضلاء وفقط، بل انتقده أيضا المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي، إذ جاء

في مجمل ما قاله عن كتاب الجزائر ما يلي: " ...وعندما أرخ المدني للدول التي مرت على الجزائر، فإنه لم يذكر الدولة الحفصية علما أنها بسطت سلطتها الفعلية على النصف الشرقي من الجزائر، وإذا كان التأريخ مبنيا على السنين، فإن المدني أهمل في بعض المواقع من كتابه تعيين التاريخ الهجري من الميلادي، مما يسبب اضطراب للقارئ الذي لا يعرف أيهما يأخذ، كما أن المدني أغفل في كتابه الجزائر تراجم الفطاحل المشهود لهم بالعلم والأدب والإصلاح من الجزائريين، وراح يقدم في مقابل ذلك معطيات مفصلة عن بعض الحكام الفرنسيين..."[23].

رابعا. أضواء على كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني:

يعتبر كتاب الجزائر من أهم الكتب التي نشرت بالجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين، جاء بأسلوب عصري بديع عباراته واضحة ومنسجمة، فرسم لنا صورة الجزائر طبق الأصل، بحيث أن من يقرأه يلم بتاريخ ذلك القطر وتقويم أرضه وعادات أهله وأخلاقهم، وأصول إدارته وقبائله ومراكزهم وعناصر سكانه، وهو من الكتب الخالدة المفيدة لما فيه من روح الشباب والتجدد[24]. وعنه (كتاب الجزائر) يقول أحمد توفيق المدني: "هذا الكتاب صورة حقيقية لقطر الجزائر، لم ترسمها ريشة مصور إنما رسمها قلم باحث جعل همه ذكر الحقائق كما هي"[25].

ولم يكن في حقيقة أمره تاريخا حين صدر، بل كان شاملا لمواضيع عديدة معاصرة مثل النظام الإداري والقضائي والمحاكم والحالة الاقتصادية والاجتماعية، وأبرز المدن وعدد سكانها، والحياة التعليمية، وواقع الصحف والنوادي وما إلى ذلك. وركز في الجانب التاريخي منه على ذكر الدول الماضية ومددها الحضاري ودور الجزائريين عبر التاريخ وأبرز القبائل التي استوطنت الجزائر من بربر وعرب[26].

أما عن مواضيع كتاب "الجزائر"، فإنه يتوزع على أربعة عشر قسما، يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مواضيع هي: التاريخ والجغرافيا والحالة الراهنة (1930). أما التاريخ فيضم الأقسام من الأول إلى السادس، وهي تؤرخ للجزائر من أقدم العصور إلى سنة 1930، وقفا بذلك على ذكر التاريخ العلمي والأدبي إلى ذات السنة، وذكر خلاصة عن العنصر البربري والعربي من حيث أصولهما ونظمهما وقبائلهما...، هذا فضلا على التعرض لبقية العناصر الأخرى المكونة لسكان الجزائر (اليهود والأوروبيون). والتطرق إلى حالة المستعمرين وسياستهم العنصرية تجاه السكان الأصليين من تحقير وتهميش.

أما أقسام الجغرافيا فهي تضم السابع والثامن، وفيهما قدم أحمد توفيق المدني بطاقة تعريفية للطبيعة الجزائرية من حيث الموقع والحدود والمساحة والمظاهر الطبيعية والغلاف النباتي، ثم تعرض لتقسيم الجزائر الإداري على عهد الاحتلال، وأعطى إحصاء للسكان عامة من أهالي وأجانب، مرفقا هذين الفصلين بترجمة لاثنين وسبعين مدينة من أمهات المدن الجزائرية. في حين خصص الأقسام المتبقية (من 09 إلى 14) للحالة الراهنة (1930) من خلال الحديث عن الحكومة المركزية والإدارة العامة والمجالس المنتخبة بالقطر الجزائري، والتعليم العام والنظام القضائي والعدلي، والحالة الاقتصادية وأحوال المسلمين عامة[27].

خامسا. دواعي الكتابة التاريخية عند أحمد توفيق المدني من خلال كتاب "الجزائر":

الحقيقة أن أحمد توفيق المدني لم يكن مؤرخا حين أقدم على تأليف كتاب "الجزائر"، بل كان عندئذ رجلا سياسيا برز في وقت الأزمة ليمثل أهل بلاده لدى الرأي العام الفرنسي ورجال الحكومة الفرنسية، غير أنه اضطر إلى الرجوع لكتابة الأحداث التاريخية28. ففيما تمثلت أسباب ودوافع عودته إلى كتابة التاريخ انطلاقا من مؤلفه "الجزائر"؟.

لم يعد أحمد توفيق المدني إلى الكتابة التاريخية إلا بعد أن مر بمراحل تجارية وسياسية متعددة، وعندما لم يحالفه الحظ فيها وتقلصت آماله، لجأ إلى ميدان آخر لكي يعوض ما فاته على أن يربح نفسه، شأنه في ذلك شأن الكثير من المفكرين، أمثال ابن خلدون الذي عجز عن تحقيق ما كان يصبوا إليه من مناصب سياسية، فعوض ذلك بتآليف مشهورة[29]. وقد حقق أحمد توفيق المدني نجاحا كبيرا في هذا المجال، لذلك فإن أقل ما يُقال هو أنه قد حاول أن يقدم لأبناء وطنه بعض ما كان يؤمن صالحا لهم، وهو ما برز واضحا في مضمون مؤلفه "الجزائر"، الذي استطاع من خلاله أن يُطلع الرأي العام العالمي على الحقائق المرة التي تعيشها الجزائر في كنف الاستعمار الفرنسي[30].

إن قراءة مضمون كتاب "الجزائر" قراءة تأملية، تجعلنا نقف على الحقائق العامة التي دفعت أحمد توفيق المدني إلى كتابته. وفي مقدمة هذه الحقائق القومية الوطنية، ففي الصفحات الأولى منه نلمس مدى تأثره بفكرة القومية الوطنية ليكون بذلك من أبرز الدعاة إلى الحركة الوطنية وإلى استقلال الشخصية الجزائرية عن المستبد الفرنسي، حيث كان غيورا على وطنه ومتحسرا على ما لحق به من ظلم، إذ نجده يعتز بجزائريته[31]، ويؤكد على استعداده للدفاع بكل ما أُوتي به من قوة عن وطنه الجزائر، وهو ما جسده من خلال نضاله السياسي المستميت[32].

ومما لا شك فيه أن تأثر أحمد توفيق المدني بالفكر القومي والوطني الذي كان سائدا في أوروبا خلال مطلع القرن 20، ومعرفته بمقومات وسبل تحقيق القومية من طرف بلدان أوروبية عديدة، هي التي جعلته يدرك بأن الحرية هي أساس تجسيد القومية، وأن لكل شعب الحق في الاستقلال وتأسيس أمة وقومية متحررة إن كان مؤهلا لذلك[33]، فكل شعب له لغة ودين وعادات يختلف بها عن الشعوب الأخرى، يحق له تكوين وطن مستقل وقومية تمثل

هويته، وهو ما حققته عدة دول على أرض الواقع، عكس الشعب الجزائري الذي حرمه الاستعمار الفرنسي من ذلك[34]، وهو ما أشار إليه في كتابه "الجزائر" حين قال: "عندما تساءلت عن الحالة العامة للمسلمين الجزائريين، وجدت أن الجزائري من حيث المنطق والمعقول هو مسلم جزائري وكفى، ومن حيث القانون الدولي فهو فرنسي، ومن حيث المعاملات الداخلية يعتبر رعية فرنسية، يقوم بالواجبات ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية، وإن أراد ذلك فيجب أن يتخلى عن الأحوال الشخصية....، إن الذي يدهشنا حقا ويفتح أبواب الهواجس في أنفسنا هو ما يسلكه نحونا رجال الإدارة الاستعمارية، فهم لا يريدون لنا أي رقي لا ضمن فرنسا ولا خارجها...، لكننا نقول لهم بكل هدوء أن عاقبة هذه السياسة الخرقاء لن تكون إلا وخيمة"[35].

وزيادة على ما سبق، فإن وطنية أحمد توفيق المدني كانت على قدر كبير من الأهمية في تأليفه لكتابه "الجزائر"، الذي أبرز من خلاله معاناة شعبه وفضح وحشية الاستعمار. فالمدني الذي أدرك أن الزمن في تدافع مجراه لا ينقطع أبدا، بقي واقفا يبحث للجزائر عن الخلاص الممكن من قبضة الاحتلال، ولم يجد غير التشهير بفرنسا وبأعمالها الدنيئة، وفضح أفكارها الجوفاء التي تنادي بها في المحافل الدولية ومؤتمراتها. وأبرز أيضا النزعة القومية التي اتصف بها العالم المسيحي، في الوقت الذي كان فيه ذلك العالم يحمل كثيرا من الحقد والكراهية للمسلمين قاطبة[36].

فعلى هذا الأساس، اتجه لكتابة مؤلفه "الجزائر" متوخيا من ذلك استنهاض همم الجزائريين بقوله: «لم أر في التاريخ العالمي أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها في المحتل وأصبحت وإياه جزءا واحدا...، إن الجزائر سواء أحرزت أم لم تحرز الحقوق السياسية سوف تبقى عربية مسلمة، ولن تترقى إلا بالجزائرية والعروبة والإسلام»[37].

سادسا. معالم وأبعاد الهوية الوطنية في كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني:

إن قراء متأنية في كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني، تجعلنا نقر بروحه المتفتحة وبأفكاره الجديدة المدعمة بالحجج القوية، وبقدرته الفائقة في مقارعة الحكومة الفرنسية بقوانينها، إذ يظهر المدني في كتابه "الجزائر" مؤلفا طويل النفس مهتما بصفة بارزة بتاريخ الجزائر، وهو أمر منطقي في نظرنا؛ بدليل أنه من الصعب إن لم نقل من غير الممكن عليه أو على غيره من المؤرخين الجزائريين أن يركزوا اهتمامهم على التاريخ الإنساني العام، في وقت كان فيه تاريخهم نفسه بحاجة إلى البعث والإحياء، لا سيما ونحن نعلم أن تاريخ الجزائر كان قد كتب وقتذاك وفي أغلب الأحوال من وجهة نظر واحدة، وهي وجهة استعمارية بحتة بلا ريب، حيث كُلف المستشرقون وغير المستشرقون من الفرنسيين وغيرهم بكتابة هذا التاريخ، لذلك فلا أحد أجدر من أبنائها للقيام بهذا الدور الحيوي[38].

الحقيقة أنه لا يمكن أن تبرز هوية فرد ولا أمة ضمن سلم الحضارة، ما لم تتضح معالم الفرد فيها والجماعة[39]، وأحمد توفيق المدني هو واحد من المصلحين ذوي الأصول الجزائرية الذين حاولوا استعادة قسمات الأمة الجزائرية الغائبة في عالم الشهود الحضاري[40]، حيث تصدى للكتابة التاريخية في فترة حرجة من التاريخ الوطني، واستطاع أن يؤلف عدة أعمال تاريخية تصدرت في أغلبها أعمال النشطين الآخرين للحركة الإصلاحية، فشهدت له بالثقافة الواسعة والموهبة الأدبية الخاصة والمتميزة[41]، وهو ما تجلى واضحا في مؤلفه كتاب "الجزائر" الذي شكل إحدى المساهمات الأساسية في المسعى الرامي إلى الإحياء الوطني الذي شرعت فيه الحركة الإصلاحية مع مطلع القرن العشرين، مكرسا (الكتاب) بذلك شهرة المدني بعد أن ظهر من خلاله كأحسن وأفضل أمل للحركة الإصلاحية الجزائرية[42].

ومما لا شك فيه أن الدارس لفصول كتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني سيقف على معالم الهوية الجزائرية التي تشبع بها ودافع عنها، وهو ما أشار إليه الباحث جوزيف ديبارمي الذي حكم على أن تأليف الكتاب كان بهدف سياسي وطني لا غير[43]. ويمكننا الوقوف بكل وضوح على معالم وأبعاد الهوية الوطنية في كتاب الجزائر للمدني من خلال النقاط التالية:

- اهتمام أحمد توفيق المدني بمعالجة واقع الجزائر في جوانبه المتعددة من وجهة نظر عربية إسلامية، مُبديا في ذلك شجاعته ومواقفه الجريئة من الأوضاع السائدة، ملتزما بقدر كبير من الموضوعية في رصد تجاوزات المستعمر الغاشم التي طالت المعالم الحضارية للأمة الجزائرية المسلمة[44]، حيث سعى أحمد توفيق المدني من خلال كتابه الجزائر إلى الدفاع عن الأمة الجزائرية المسحوقة من قبل قوانين الردع والزجر والقمع الاستعماري الفرنسي، منطلقا من مبادئ وغايات واضحة، باحثا فيها عن ما تبقى يومها من رسوم أطلال الأمة الجزائرية تحت جبروت وقهر الاستعمار[45]، كما رفع شعارات الهوية الوطنية خفاقة بوضع ديباجة على غلاف الكتاب بكلمات مؤثرة هي: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"[46]. وبهذا عُدّ كتابه بمثابة عنوان حقيقي لتجدر الوطنية الجزائرية، كيف لا وأن المدني قد دافع بشدة من خلال فصول الكتاب عن حرمة دين الجزائريين الإسلامي، ولغتهم العربية وتاريخهم العريق، مشيدا بالقيم الثقافية والسياسية للمجتمع الجزائري[47].

- مساهمة أحمد توفيق المدني من خلال كتابه "الجزائر" في بلورة بعض المفاهيم ذات البعد الوطني التي كانت غائبة أو بالأحرى مغيبة عن أذهان الجزائريين، مثل "أرض الجزائر"، "الوطن"، "الأمة الجزائرية"، "الشعب"...[48]، وهذا باعتراف المؤرخ الفرنسي شارل روبير آجرون الذي أشار إلى قوة المشاعر الوطنية في كتاب الجزائر من خلال مفرداته التي تقوي أواصر الأخوة

والتضامن بين الجزائريين[49]. ولعل هذا ما جعل عبد الحميد بن باديس يثني على أحمد توفيق المدني قائلا: "الخدمات التي يجب تقديمها للبلاد في مثل هذا الظرف هي نظير ما اختطه المدني، بما يجعل الشباب عارفين لوطنهم...، فاكتشاف كل ما كان للوطن من عز هو عمل مثمر...، فالذي يحمل كل فكرة وطنية لا يصدق فيما يقول إلا إذا خدم الوطن من الناحية التي خدمها المدني"[50].

- دفاعه المستميت عن هيبة الدولة الجزائرية من حيث وجودها عبر التاريخ، إذ جاء كتابه كردة فعل ثقافية لدحض الأحكام الاستعمارية التي روجت لها فرنسا أثناء احتفالها بمئوية الاحتلال، والتي تدعي من خلالها أن الجزائر لم يكن لها وجودا كدولة ذات سيادة قبل مجيء الفرنسيين، وأن الشعب الجزائري لا مقومات له[51]. فكتاب الجزائر فيه رد صريح على مزاعم الفرنسيين الباطلة، لما ورد فيه من معالم الأمة الجزائرية ذات السيادة الوطنية التي لم يتمكن الاستعمار الفرنسي من طمسها، بما يعكس القيمة التاريخية لكتاب الجزائر الذي جاء مفعما بالحقائق التاريخية عن الجزائر منذ العهود القديمة، ليمثل بذلك تحديا حقيقيا للسلطة الفرنسية خلال مطلع الثلث الأول من القرن العشرين[52].

- اعتماد أحمد توفيق المدني على المنظور الوطني والحس الديني في كتابة مؤلفه "الجزائر"، وهو ما يعكس نيته الصادقة في إثارة النفوس وتربية الأجيال على حب الوطن والدعوة إلى التحرر من الاستعمار، إذ نجده يجاهر بمحاربة الكيان الفرنسي في الجزائر من منطلق أن الجزائر ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون كذلك، فالواقع والسياسة الفرنسية التي تتجلى خصائصها في التمييز العنصري واستلاب الخيرات، والتفريق في حقوق المواطنة المزعومة فيها دلائل واضحة للاختلاف بين شعبين؛ الأول يضرب أعماقه في العروبة والأمازيغية الإسلامية والثاني إفريقي مسيحي[53].

- مساهمة أحد توفيق المدني من خلال كتابه "الجزائر" في نشر الوعي الوطني وترسيخ الانتماء القومي وتحقيق التعايش الإنساني، إذ توجه في مقدمة كتابه إلى الشباب الجزائري وهو يحدد له الغاية من تأليفه قائلا: "... حتى تعرف وطنك حق المعرفة، فلا تزداد بمعرفة إياه إلا حبا له وغراما فيه، فهو وطن ماجد، وتاريخه نبيل، ورجاله أبطال، وأرضه صالحة، وأمته حية شريفة، ولن تكون لمعرفتك إياه من نتيجة إلا إقبالك على خدمته الخدمة المثلى، فتقيله من عثرته وتسير به بحول الله نحو المستقبل البعيد.."[54].

- اهتمام أحمد توفيق المدني بمعالجة مشكلة الفراغ الذهني التاريخي لدى الشباب الجزائري من خلال كتابه "الجزائر"55، سواء منهم المثقفين بالفرنسية ممن تمزقت أذهانهم إلى انجذاب نحو التاريخ الدخيل ونفور من التاريخ الجزائري المشوه، أو المثقفين منهم بالعربية ممن خانتهم المراجع الرابطة للماضي بالأصالة والنزاهة، فوجدوا أنفسهم وسط حلقة مفقودة[56].

وفي هذا الشأن يقول المدني: "إنكم ترون كما رأيت أن أبناء العربية في الجزائر يجهلون كل شيء عن هذا الوطن...، وكأنهم خلقوا على أرض مبتورة الأصل مجهولة النسب، فهم لا يبحثون عن حوادث أمسها ولا يهتمون لحالة يومها ولا يتساءلون عن مستقبل غدها"[57] ومن خلال ذلك يظهر لنا أن البلاد كانت في ضياع، فالمفكرون الجزائريون لم يكتبوا تاريخهم كما ينبغي الأمر، ولذلك رأى ضرورة وضع الأهالي أمام حقيقتهم، بتقديم حالتهم الشخصية غير مدنسة أو مشوهة، وغير خاضعة للدعاية المغرضة ولا للتزييف الاستعماري[58].

- اعتماد أحمد توفيق المدني في كتابه "الجزائر" على أسلوب ولغة وعاطفة تصب كلها في صالح الهوية العربية الإسلامية للجزائر[59]، حيث جاء الكتاب يحمل توجيهات ويتضمن رسائل في غاية الأهمية عند وضعها في سياقها الزمني من حيث مدلولاتها الأيديولوجية، وما ترمي إليه من أغراض تشع

بالوطنية، فقد احتوت مقدمة الكتاب دعوة صريحة للشباب للاهتمام بتاريخ وطنهم حين أوضح صاحبه أن هذه الشريحة التي كانت تتجاذبها التيارات يمينا وشمالا وقتذاك، حتى صارت تبدو وكأنها تعيش في ديار غير ديارها أو خلقت على أرض مبتورة الأصل، ليخلص إلى أن هذا المعزوف الظاهر عن الانشغال بهموم البلاد، إنما مرده انعدام الوسيلة ألا وهي الكتابة بلسان عربي، لذلك ركز توجيهه نحو الفئة التي تمثل حسبه مركز الشعور والإحساس في جسد الأمة، فخاطبها قائلا: "أيها الشبان البررة وعلى أعمالكم يعتمد هذا الوطن، كي يبني صرح مجده عاليا، ويتبوأ مقعده بين الأمم العربية الناهضة"[60]. وأهاب بهذه الطاقة الحيوية في المجتمع ضرورة مطالعة الكتاب، والتي ستزيدهم حتما حبا لوطنهم، مذكرا الجميع في لفتة ذكية سرب خلالها الأفكار التي يتوق إيصالها، حين ألح على أن الجزائر لن تسعد إلا إذا عملت في دائرة دينها ولغتها وقوميتها موجها نداء بغرض التصدي لسياسة التجنيس ونبذ تلك الفكرة الغريبة. داعيا إلى المحافظة على الخصوصية الدينية واللغوية وترقيتهما[61].

وفي ختام كلامنا عن البعد الوطني عن أحمد توفيق المدني من خلال كتابه المرآة، يمكننا القول من خلال وضع المعالم والأبعاد السالفة الذكر ضمن سياق المقارنة مع المؤرخين الذين عاصروه، أن المدني كان دو نزعة دينية في معالجة واقع الجزائر، شأنه في ذلك شأن رفاقه من النهضة آنذاك من أمثال الشيخ مبارك الميلي وعبد الرحمن الجيلالي[62]، فقد ظهر المدني في ما قدمه وكأنه من دعاة التجديد، خاصة عندما تحدث عن قضايا المجتمع كالتعليم والصحافة والشباب، إذ حث على تكوين المدارس والتخرج من المهن واثقان الفلاحة والتجارة، ليلتقي بذلك في هذا المجال مع المؤرخ مبارك الميلي[63]. كما يلتقي مع الميلي في إظهار شخصية البربري والعربي عبر التاريخ على أنه شخصية لا تذوب في الغير، وأن هؤلاء القوم يقطنون المنطقة منذ القديم،

وبينهما علاقات راسخة تجعلهم شعبا واحدا، بما يعكس تجدر الوطنية في كتاباتهما التاريخية[64].

كما يرى أبو القاسم سعد الله أن كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني يشبه إلى حد بعيد كتاب المرآة لحمدان بن عثمان خوجة65، ومثله أيضا يقدم لنا عبد الرحمن الجيلالي مقاربة بين كتاب الجزائر للمدني وكتاب المرآة لحمدان خوجة، من خلال اعتمادهما معا على المشاهدة المباشرة كمصدر أساسي للتعبير عن واقع الجزائر، هذا فضلا على اعتمادهما على الأساليب المقنعة في التعريف بالقضية الجزائرية، مثل تذكير فرنسا بمبادئ ثورتها وقيمها الإنسانية كالعدالة والحرية، في محاولة لوضعها أمام الأمر الواقع[66].

سابعا. خاتمة:

يمكننا القول في خاتمة هذه الدراسة أن أحمد توفيق المدني كان من أوائل المفكرين الجزائريين الذين اطلعوا على مفهوم القومية والهوية الوطنية الحديثة، فقام بتسريبها عبر صفحات كتابه "الجزائر" الذي ملأه بأفكار قومية تحررية في إطار مجابهة المستعمر الفرنسي، وأصبح أحد أبطال القومية العربية الإسلامية وأبرز رواد الوطنية الجزائرية، باعتبار أنه ساهم من خلال كتابه "الجزائر" في وضع اللبنات الأولى التي قام عليها صرح الوطنية، وأدلى بمواقف وآراء شجاعة تهدد وجود فرنسا في الجزائر، في وقت كانت فيه الرقابة الفرنسية واقفة بالمرصاد لكل جريء يخوض في قضيتي العدالة والحرية. وعليه يمكن القول أن كتابته التاريخية قد اتخذت شكل المقاومة الثقافية والسياسية للاستعمار الفرنسي، وهي المقاومة التي لم تعرفها الجزائر جليا إلا بعد حوالي قرن من الاحتلال، إن دل هذا على شيء إنما يدل على مكانة كتابه "الجزائر" ضمن مدرسة التاريخ الوطني.

ثامنا. الهوامش:

1- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص 13.

2 - علي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي من 1925 إلى 1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 138.

3 - عبد الرحمن الجيلالي، مزية الأستاذ أحمد توفيق المدني على تاريخ شمال إفريقيا، مجلة التاريخ، العدد 18، المركز الوطني للبحوث التاريخية، الجزائر، جوان 1985، ص 24.

4 - أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص 98.

5 - فاطمة تازير وفضيلة نكور، أحمد توفيق المدني 1899- 1983، مجلة التاريخ، العدد 18، المركز الوطني للبحوث التاريخية، الجزائر، جوان 1985، ص 11.

6 - بوعزة بوضرساية، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، دار الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 349.

7 - عبد القادر خليفي، الكتابات التاريخية وبعث الوطنية الجزائرية في ظل الحقبة الكولونيالية، مجلة أبحات ودراسات، العدد 13، جامعة الجلفة،2011، ص 83.

8 - محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 04، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 266.

9 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظامها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية، المطبعة العربية، الجزائر، 1931، ص 70.

10 - نفسه، ص ص 71. 72.

11 - عبد القادر خليفي، أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1988- 1983، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة، 2006- 2007، ص 172.

12 - لقد نشرت جريدتي "الإصلاح" و"الشهاب" مقال أحمد توفيق المدني، وهو عبارة عن خطاب موجه إلى الجزائريين يحدرهم فيه من خطر فرنسا المحدق بهم. وللإطلاع على نص المقال، يرجى العودة إلى: أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص ص 165. 166.

13 - Hassen Remaoun, Les historiens algériens issus du mouvement national, In Insaniyat, n 25- 26, juillet- décembre, 2004, p 230.

14 - شريف الدين غنو، مسألة الذاكرة ضمن اهتمامات مؤرخي الحركة الوطنية والثورة الجزائرية 1900- 1962، أطروحة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د)، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2018- 2019، ص 97.

15 - فاطمة الزهراء نور، إسهامات المثقفين الجزائريين في إثراء الدراسات الخاصة بالعهد العثماني: أحمد توفيق المدني أنموذجا، مجلة تاريخ العلوم، المجلد 05، العدد 03، جامعة زيان عاشور، الجلفة، جوان 2020، ص 365.

16 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830- 1954)، ج 07، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 423.

17 - لوثروب ستودارد الأمريكي، حاضر العالم الإسلامي، ج 04، ط 04، ترجمة عادل نويهض، تعليق الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دون مكان، 1973، ص 105.

18 - عبد القادر خليفي، أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية ...، المرجع السابق، ص 109.

19 - عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925- 1954. النهضة الفكرية- النهضة الصحفية والأدبية- النهضة التاريخية، ط 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 219.

20 - محمد الطاهر فضلاء، التزيف والتحريف في كتاب حياة كفاح، ط 01، دار البعث، قسنطينة، 1982، ص 27.

21 - محمد الطاهر فضلاء، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص 69.

22 - باديس فضلاء، مقامات في مقالات للأستاذ محمد الطاهر فضلاء، دار هومة، الجزائر، 1999، ص 51.

23 - عبد الرحمن الجيلالي، كتاب الجزائر تجاه النقد، الشهاب، ج 05، م 08، الجزائر، ماي 1932، ص 267.

24 - محمد قنانش، المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية في فجر النهضة الحديثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص 115.

25 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص 373.

26 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ...، المرجع السابق، ص 422.

27 - فارس كعوان، المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي 1830- 1962. مساهمة في التاريخ الثقافي والفكري، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة قسنطينة، 2011- 2012، ص 362.

28 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص 400. 401.

29 - محمد قنانش، المرجع السابق، ص 116.

30 - حميدة عميراوي، الشرق والغرب في مدونات الرحالة العرب والمسلمين. أبحاث ندوة الرحالة العرب والمسلمين. اكتشاف الذات والآخر، الجزائر، 2005، ط 01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2005، ص 400.

31 - محمد قنانش، المرجع السابق، ص 116.

32 - نفسه، ص 119.

33 - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 04، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 32.

34 - André Noshi, La naissance du nationalisme Algérien 1914- 1954, Edition de minuit, Paris 1962, p 155.

35 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص 327.

36 - عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص 39.

37 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص 329.

38 - عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص ص 207. 208.

39 - عبد الملك أنور، الفكر العربي في معركة النهضة، ط 03، دار الآداب، بيروت، 1981، ص 102.

40 - عبد الكريم بوصفصاف، المؤرخون الجزائريون ومنهجيه الكتابة في الحركة الوطنية الجزائرية في عهدي الاحتلال والاستقلال، مداخلة منشورة ضمن أعمال الملتقى الدولي الأول لمنتدى التاريخ المعاصر حول: منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، سبتمبر 1998، ص 44

41 - فارس كعوان، المرجع السابق، ص 356.

42 - علي مراد، المرجع السابق، 138.

43 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 422.

44 - بلقاسم ميسوم، كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني: دراسة تحليلية نقدية، مجلة المصادر، العدد 16، القرص المضغوط الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الأبيار، 2010.

45 - محمد قنانش، المرجع السابق، ص123.

46 - ينظر واجهة كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني.

47 - Saad Eddine Ben Chaneb,quelque historiens arabe moderne de l'Algérie, In revue société historique algerienne, Alger, 1956, p 492.

48 - شريف الدين غنو، المرجع السابق، ص 101.

49 - شارل روبير آجرون، تاريخ الجزائر المعاصر، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص 144.

50 - عبد الحميد بن باديس، كتاب الجزائر كذلك وبمثل ذلك يؤدى الواجب أيها الجزائري الناشئ، الشهاب، ج03، م 08، مارس 1932، ص 160.

51 - إلياس نايت قاسي، مئوية الاحتلال الفرنسي للجزائر وأثرها على الحركة الوطنية، دار كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 78.

52 - محمد بوطيبي، بواكير كتابة تاريخ الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين: كتابات أحمد توفيق المدني أنموذجا، مجلة تاريخ العلوم، المجلد 05، العدد 03، جامعة زيان عاشور، الجلفة، جوان 2020، ص 365.

53 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص 71.

54 - نفسه، ص 18.

55 - نفسه، ص 356.

56 - نفسه، ص 358.

57 - نفسه، ص 359.

58 - نفسه، ص 373.

59 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 422.

60 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المصدر السابق، ص ص 373-374.

61 - نفسه، ص 381.

62 - شريف الدين غنو، المرجع السابق، ص 119.

63 - فارس كعوان، المرجع السابق، ص 364.

64 - Saad Eddine Ben Chaneb, op. cit, p 495.

65 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 422.

66 - شريف الدين غنو، المرجع السابق، ص 123.